دراســة عقديـة لثلاث آيـات من ســورة الأنعــام

د.عماد عبد الكريم الخصاونة [*] دة. هــلا نايف المشاقبة [**]

تاريخ تسلم البحث: 01/03/2016م **تاريخ قبوله للنشر: 03/08/2016م**

الملخص

تتناول هذه الدراسة تفسير ثلاث آيات كريمات من سورة الأنعام، في موضوعات عقدية مختلفة. فجاءت في ثلاثة مباحث فسرنا فيها هذه الآيات تحليلياً؛ تمهيداً لبيان المسائل العقدية فيها، ثم بينا المسألة العقدية في الآية الكريمة؛ وعرضنا الأقوال فيها، ثم بينا الرأي الراجح بالاستناد إلى النصوص القرآنية؛ وسنة النبيﷺ. وأول هذه المسائل: مشيئة هداية الله تعالى للإنسان، وثانيها: سماع الموتى، وإثبات البعث، وثالثها: بيان حقيقة حشر الكفار صما بكما.

الكلمات الدالة: القبر، الأنعام، الهداية.

Abstract

This study deals with the interpretation of the three verses from Sorat Alanaam, in different doctrine subjects. It came in three sections, where I interpret these verses in analysis as a prelude to a stating the issues of doctrine in them. Then I showed the doctrinal issue in the verse; and offered words where I showed the most correct opinion, based on Koran texts; and the Sunnah of the Prophet peace be upon him. The first of these issues is the will of the Hidayat of God to humans, and the second is listening to the dead, and proof of the Baath, and the third is the statement of the fact of al-Hasher of the non-believers as deaf and dump.

Key words: the grave, the guidance.

المقدمـة :

[*] * أستاذ مشارك، قسم أصول الدين، كلية الشريعة، جامعة آل البيت.

[*] * أستاذ مساعد، قسم أصول الدين، كلية الشـريعة، الجامعة الأردنية.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى، خاتم النبيين، وآله وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم على الصراط المستقيم إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الله أوحى إلى نبيه القرآن الكريم، وختم به الرسالات، فجمع بين دفتيه أموراً في الدين والدنيا؛ من العقيدة الصحيحة، والعبادات، والمعاملات بما يحقق الهداية والسلام والسكينة في النفوس الزكية، فذكر التوحيد، والألوهية، والربوبية والرسل عليهم السلام وغيرها مما نعجز عن بيانه هنا، وخصنا بسورة جليلة تعد من أعظم السور هي "سورة الأنعـام"، حيث تحدثت عن أصول الدين: كالتوحيد والعدل والرد على أهل الأهواء والمزاعم في مسألة القدر والإيمان والمشيئة وغيرها، فتناولت في هذا البحث ثلاث آيات منها هي:

- الآية الأولى؛ قوله تعالى: **﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام، 35].**
- الآية الثانية؛ قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام، 36].**
- الآية الثالثة؛ قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام، 39].**

محاولاً بعون الله تعالى بيانها وتفسيرها، وكشف المسائل العقدية التي تناولتها من خلال كتب التفسير والعقائد.

مشكلــة البحــث:

تتمثل مشكلة البحث في الأمور الآتية:

أ – ما المراد بالمشيئة في قوله تعالى:**﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾**؟.

ب- كيف نرد على الفِرق التي ضلت في اعتقاد هداية الله تعالى للعباد؟.

ج- ما علاقة القدر وخلق أفعال العباد بإرادة الله تعالى الهداية والضلال للإنسان؟.

د- ما القول الفصل في قضية سماع الأموات للأحياء؟.

هـ- هل يُحشر الكفار يوم القيامة صُم بُكم على الحقيقة؟.

أهداف البحث**:**

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق الآتي:

أ - التعريف بسورة الأنعام.

ب- تفسير الآيات الكريمة سابقة الذكر تفسيراً إجمالياً.

ج- بيان المسائل العَقَدية في الآيات الكريمة.

د- بيان آراء الفرق الضالة في تلك المسائل، والرد عليها بمذهب أهل السنة.

أهميـــة البحـــث :

تظهر أهمية البحث من خلال تناول الجوانب الآتية:

أ – بيان مشيئة الله تعالى في هداية الناس، وآراء الفرق في ذلك.

ب- توضيح هدف النبوة في التبليغ، وأن الهداية والضلال من الله .

ج- عرض الآراء في قضية سماع الموتى للأحياء.

د- إثبات البعث من القرآن الكريم والسنة النبوية والعقل.

هـ- بيان حال الكفار عند البعث من حيث السمع والبصر.

منهج البحث**:**

اتبع الباحث في إعداد هذا البحث المناهج الآتية:

أ – **المنهج الاستقرائي**: من خلال تتبع مواضع الآيات الكريمة في التفاسير المختلفة وكتب العقائد.

ب- **المنهج التحليلـي**: من خلال دراسة الآيات الكريمة من أمهات التفاسير، والرجوع إلى كتب العقائد والملل بما يخدم البحث في مسائله المختلفة.

خطــة البحث**:**

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد، وثلاثة مباحث، فخاتمة.

أما تمهيد البحث: فيشتمل على التعريف بسورة الأنعام.

المبحث الأول: تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة الأنعام.

وينقسم إلى مطلبين هما:

المطلب الأول: التفسير التحليلي للآية الكريمة.

المطلب الثاني: مشيئة هداية الله للإنسان.

المبحث الثاني: تفسير الآية السادسة والثلاثين من سورة الأنعام.

ينقسم إلى ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: التفسير التحليلي للآية الكريمة.

المطلب الثاني: سماع الموتى الكلام.

المطلب الثالث: إثبات البعث.

المبحث الثالث: تفسير الآية التاسعة والثلاثين من سورة الأنعام.

ينقسم إلى مطلبين هما:

المطلب الأول: التفسير التحليلي للآية الكريمة.

المطلب الثاني: بيان حقيقة الصمم والبُكم.

أما **الخاتمة** فقد ذكرت فيها أهم النتائج التي توصل البحث إليها.

التمهيـد:

سورة الأنعام مكية النزول كما قال أهل العلم إلا آيات منها نزلت في المدينة، قال السيوطي- رحمه الله- في الإتقان: " عن ابن عباس قال: "سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة[1]: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ**﴾ **[الأنعام، 151]** إلى تمام الآيات الثلاث وما تقدم من السور مدنيات"[2]. وسميت بالأنعام لذكرها في السورة الكريمة. قال الزركشي-رحمه الله-: "وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا**﴾ إلى قوله: ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء**﴾ لم يرد في غيرها"[3].

و مما يدل على حرص علماء المسلمين بهذا الدين ما جاء في ذكر عدد آياتها وكلماتها وحروفها عند أبي عمرو الداني حيث قال: "وكلمها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة، وحروفها اثنا عشر ألفاً وأربع مئة واثنان وعشرون حرفاً. وهي مئة وخمس وستون آية في الكوفي وست في البصري والشامي، وسبع في المدنيين والمكي، اختلافها أربع آيات ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ عدها المدنيان والمكي ولم يعدها الباقون ﴿**قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ**﴾ عدها الكوفي ولم يعدها الباقون ﴿**كُن فَيَكُونُ**﴾ ﴿**إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ الثاني بعده ﴿**دِينًا قِيَمًا**﴾ لم يعدهما الكوفي وعدها الباقون وكلهم عد ﴿**إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ الأول"[4].

---

1 ذكر ذلك: الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد الأموي، **البيان في عد آي القرآن**، (ص151)، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، 1414هـ/1994م، الطبعة الأولى، تحقيق: غانم قدوري الحمد. النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي، **الناسخ والمنسوخ**، (ص415)، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، 1408هـ، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (المتوفى 276هـ)، **غريب القرآن**، (ص 150)، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، 1398هـ/1978م.

2 السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى 911هـ)، **الإتقان في علوم القرآن**،(1/39)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة 1394هـ/ 1974م.

3 الزركشي، أبو عبدالله، محمد بن بهادر بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، (1/270)، دار المعرفة، بيروت، 1391، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

4 الداني، **البيان في عد آي القرآن**، (151).

وسورة الأنعام من السبع الطوال كما ورد عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال: "من أخذ السبع فهو حبر - يعني السبع الطوال- ، وهن في قول سعيد بن جبير، البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس"[5].

وجاء في فضل هذه السبع عند البيهقي- رحمه الله-: "عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:"أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَمَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَمَكَانَ الإِنْجِيلِ الْمَثَانِي، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ"[6].

وكذلك أورد البيهقي- رحمه الله-: "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "نَزَلَتْ سُورَةُ الأَنْعَامِ وَمَعَهَا مَوْكِبٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ سَدَّ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ لَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْبِيحِ وَالأَرْضِ بِهِمْ تَرْتَجُّ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:"**سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ**"[7].

وقد جاء مقصود هذه السورة الكريمة مرتبطاً بمقصود السورة السابقة "المائدة" من الاستدلال على التوحيد، وتفرد الله ﷻ بالمُلك والتصرف والقدرة والإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، وإحاطته ﷻ بسائر الأمور والخلق، فهو سبحانه وتعالى المُستحق للعبودية المُتفرد بالالوهية. فردت هذه السورة الكريمة على أهل الملل والأهواء، وأقامت الحجة على المُعاندين الضُلَّال من المُبتدعة والقدرية الذين أشركوا العبد في القدرة مع الخالق تبارك وتعالى، فحضنت السورة الكريمة أصول الدين بين آياتها، وصانته عن الخلط والالتباس بالبيان والحجة.

المبحـث الأول

تفسـير الآيــة الخامسة والثلاثـين من سـورة الأنعـام

قال تعالى في الآية الخامسة والثلاثين من سورة الأنعام: **﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾**.

المطلب الأول: التفسير التحليلي للآيـة الكريمـة

جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة: "روى ابن عباس أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مَنَافٍ أتى رسول الله ﷺ في مَحْضَرٍ من قريش، فقالوا: يا محمد ائتنا بآية من عند الله ، كما كانت الأنبياء تفعل فإنا نصدق بك، فأبى الله أن يأتيهم بآية ، فأعرضوا عن رسول الله ﷺ فَشَقَّ ذلك عليه، فنزلت هذه الآية"[8].

فالآيات السابقة تحدثت عن تكذيب قريش للنبي ﷺ وبيان ما لحقه من أذى، قال تعالى: **﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34]** فأتبعها الله ﷻ بالتسلية والتصبير للنبي ﷺ وبيان أن هذه حال الأنبياء- عليهم السلام- جميعاً في الدعوة لله تعالى، فما منهم إلا مَن تعرض للأذى والتكذيب. "ولما سلاه بما هو في غاية الكفاية في التسلية, أخبره بأنه لا حيلة له غير الصبر, فقال عاطفاً على ما تقديره: فتسلّ واصبر كما صبروا, وليصغر عندك ما تلاقي منهم في جنب الله"[9].

وقوله تعالى: **﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾** كلام مستأنف مسوق لتأكيد إيجاب الصبر المستفاد من التسلية ببيان أنه أمر لا محيد عنه أصلاً، أي إن كان عظم عليك وشق إعراضهم عن الإيمان بما جئت به من القرآن الكريم حسبما يفصح عنه ما حكي عنهم من تسميتهم له أساطير الأولين وتنائيهم عنه ونهيهم الناس عنه"[10]" **﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾** قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس:النَّفقُ: السّرْب، فتذهب فيه**﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾** أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به، فافعل"[11].

---

8 ابن عادل الدمشقي، أبو حفص عمر بن علي، **اللباب في علوم الكتاب**، (8/119)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ/1998م، الطبعة الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض. ولم أقف في كتب الحديث والتخريج وأسباب النزول على هذه الرواية.

9 البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (2/579)، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، 1415هـ/1995م.

فتبين اهتمام النبي ﷺ بهداية قومه وإلحاحه عليهم بالإيمان حتى كأنه ﷺ خاض في الصعب والوعر لأجل أن يؤمنوا، فهو حائر بين السماء والأرض يبحث ويبتغي فيهما عن الوسيلة والآية التي طلبوها. فذكر الماتريدي أن سؤالهم سؤال تعنت لا سؤال طلب آيات لتدلهم على الهدى، وفي قوله تعالى: ﴿**فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ**﴾ نهي عن الحزن عليهم كل هذا الحزن بما يَنزلُ بهم، وقد تعلم صنيعهم وسوء معاملتهم آيات الله[12].

وقوله تعالى:﴿ **فَتَأْتِيَهُمْ**﴾ منها ﴿**بِآيَةٍ**﴾ فافعل. يعني أنك لا تستطيع ذلك. والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم. وقيل: كانوا يقترحون الآيات فكان يودُّ أن يجابوا إليها لتمادي حرصه على إيمانهم. فقيل له: إن استطعت ذلك فافعل، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون. ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو الإتيان بالآية، كأنه قيل: لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الرقي إلى السماء لفعلت، لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها"[(13)].

وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى**﴾.

في هذه الجملة من الآية الكريمة – وغيرها في القرآن الكريم- تباينت الآراء بين المذاهب الإسلامية من أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والقدرية في هداية الله ﷻ للإنسان، ومما جاء في تفسيرها عند ابن الجوزي - رحمه الله-: " ﴿**وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى**﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لو شاء أن يطبعهم على الهدى لطبعهم، والثاني: لو شاء لأنزل ملائكة تضطرهم إلى الإيمان ذكرهما الزَجَّاج، الثالث: لو شاء لآمنوا كلهم فأخبر إنما تركوا الإيمان بمشيئته ونافذ قضائه"[(14)]. ففسر جمعهم على الهداية بأنها غرز الإيمان في النفوس فتكون طبيعة للبشر، أو جبرهم عليها بواسطة الملائكة، أو أن يؤمنوا جميعاً طوعاً.

قال الماتريدي-رحمه الله-: " ﴿**وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى**﴾ أي لجمعهم جميعاً بحيث اختاروا الهدى على غيره. ولكن لمَّا علم أن يختاروا الكفر على الهدى لم يشأ أن يجمعهم على الهدى"[(15)].

وسيتناول المطلب الثاني هذه المسألة من خلال قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى**﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾.

خاطب الله ﷻ النبي ﷺ وأوصاه بكلمات بينها الطبري في تفسيره لتذييل الآية الكريمة فقال: "فلا تكونن ممن لا يعلم أن الله لو شاء لجَمع على

---

[14] ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد، **زاد المسير في علم التفسير**، (3/ 33)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (1404هـ).

الهدى جميع خلقه بلطفه، وأنَّ من يكفر به من خلقه إنما يكفر به لسابق علم الله فيه، ونافذ قضائه بأنه كائنٌ من الكافرين به اختياراً لا اضطراراً، فإنك إذا علمت صحة ذلك، لم يكبر عليك إعراضُ من أعرض من المشركين عما تدعُوه إليه من الحق، وتكذيبُ من كذَّبك منهم"[16].

وأضاف ابن الجوزي- رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾قائلاً: فيها ثلاثة أقوال:"أحدها لا تجهل أنه لو شاء لجمعهم على الهدى، والثاني لا تجهل أنه يؤمن بك بعضهم ويكفر بعضهم، والثالث لا تكونن ممن لا صبر له لأن قلة الصبر من أخلاق الجاهلين"[17].

فاتفق العالمان الجليلان على أن الله ﷻ لو شاء هداية جميع بني آدم لكان ما أراد، ولجمعهم على الهدى والإيمان، ولكنه تعالى ينبه رسوله ﷺ أن لا موجب لهذا الضيق والحزن على مَنْ تكبر وشاء الكفر. "وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة – الجهل- كما أن قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾**[الأحزاب، 48]** لا يدل على أنه أطاعهم وقبل دينهم، والمقصود أنه لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيبهم، ولا يجوز أن تجزع من إعراضهم عنك فإنك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل؛ والمقصود من تغليظ الخطاب التبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة والله أعلم"[18].

المطلب الثاني: مشيئة هداية الله ﷻ الإنسان

من الآيات الكريمة التي تحدثت عن مشيئة الله وإرادته الهداية أو الضلال قوله تعالى: ﴿**مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ **[الأنعام، 39]**؛ ﴿**مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ**﴾ **[الأنعام، 111]**؛ ﴿**فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء**﴾ **[الأنعام، 125]**؛ ﴿**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾ **[يونس، 99]**؛ وغيرها من الآيات.

قبل بيان مسألة هداية الله تعالى لا بد لنا من الوقوف على معنى الهداية في اللغة؛ فهي المعينة على فهم النصوص؛ فقيل هي الدلالة والرشاد[19] والتوفيق. قال الأصفهاني" وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل، والفطنة، والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال: ﴿**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ **[طه، 50]**.

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾ **[الأنبياء، 73]**.

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعني بقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد، 17]**، وقوله: **﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن، 11]**، وقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[يونس، 9]**، وقوله: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت، 69]**، **﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم، 76]**، **﴿فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [البقرة، 213]**، **﴿وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة، 213]**.

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله: **﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد، 5]**، **﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف، 43]** إلى قوله: **﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾** الآية**:** **﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف، 43]** .

وهذه الهدايات الأربع مترتبة؛ فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله"[20].

والذي يترجح لي في معنى الهداية في قوله تعالى: **﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾** مع الاعتماد على سبب النزول أنها ما أشار اليه الراغب في النوع الثالث؛ أي الهداية التوفيقية من الله تعالى، فالله عز وجل لم يمنع النوع الأول والثاني عنهم - وعن سائر الخلق- ؛ أي الهداية العامة لكل المكلفين حيث أنعم عليهم بالعقل والفطنة وما يلزم ليستدلوا على الخالق عز وجل؛ والنوع الثاني حيث عاصروا الرسول ﷺ وسمعوا منه أعظم معجزة وهي القرآن الكريم، ولكن العقول الكليلة المملوءة بالجهل والكبر أبت إلا الكفر، وهذا ما دلت عليه الآية الكريمة حيث قال تعالى:**﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾** ولا يكون الإعراض إلا بعد المواجهة بما يقابله من الحق الذي ما سمعوه إلا من النبي ﷺ، فاجتمع القوم على الضلال لا على الهدى بعد أن أنزل الله تعالى من الأسباب ما لو أخذوا بها لآمنوا واهتدوا.

قال الطبري: " فلا تكونن ممن لا يعلم أن الله لو شاء لجَمع على الهدى جميع خلقه بلطفه، وأنَّ مَن يكفر به من خلقه إنما يكفر به لسابق علم الله فيه، ونافذ قضائه بأنه كائنٌ من الكافرين به اختياراً لا اضطرارا،

---

20 الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، **مفردات ألفاظ القرآن**، (2/ 468)، دار القلم، دمشق**.** وقد ذكرها الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (40/ 282).

فإنك إذا علمت صحة ذلك، لم يكبر عليك إعراضُ مَن أعرض من المشركين عما تدعُوه إليه من الحق، وتكذيبُ من كذَّبك منهم"[21].

إن عدم إرادة الله تعالى الهدى لهم لعلمه السابق بأنهم سيختارون الضلال على الهدى، لا إجباره تعالى الخَلق على الضلال، ففي القول بالإجبار والإكراه ظلمٌ؛ وهو ما لا يُقبل على الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ **[النساء، 4]**، فنفى الله عنه الظلم، ثم بيَّن أن التكليف لا يكون إلا في وسع الإنسان: ﴿**وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ **[المؤمنون، 62]** فكيف يجازي وقد حرَّم الظلم على نفسه مَن كان مكرهاً أو مضطراً. فكان الجزاء من جنس العمل: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ **[فصلت، 46]**.

"ولو شاء الله لجمعهم على الهدى أي ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم على ما أنتم عليه من الهدى لفعله بأن يوفقهم للإيمان فيؤمنوا معكم، ولكن لم يشأ لعدم صرف اختيارهم إلى جانب الهدى مع تمكنهم التام منه في مشاهدتهم للآيات الداعية إليه، لا أنه تعالى لم يوفقهم له مع توجههم إلى تحصيله، وقيل: لو شاء الله لجمعهم عليه بأن يأتيهم بآية ملجئة إليه ولكن لم يفعله لخروجه عن الحكمة. وقوله تعالى: ﴿**فلا تكونن من الجاهلين**﴾ نهي لرسول الله ﷺ عما كان عليه من الحرص الشديد على إسلامهم، والميل إلى إتيان ما يقترحونه من الآيات طمعاً في إيمانهم، مرتب على بيان عدم تعلق مشيئته تعالى بهدايتهم والمعنى وإذا عرفت أنه تعالى لم يشأ هدايتهم وإيمانهم بأحد الوجهين فلا تكونن بالحرص الشديد على إسلامهم أو الميل إلى نزول مقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شئونه تعالى التي من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم إما اختياراً فلعدم توجههم إليه وإما اضطراراً فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار"[22].

فرأى أبو السعود بأن الهداية هنا هي الهداية التوفيقية من الله تعالى للإيمان بعد أن وجههم السبيل وبيَّنه لهم، فما كان منهم إلا الإنكار والجحود بعد العلم. وإلا فبإمكان الله تعالى أن يجمعهم على الإيمان بأن يلجئهم ويضطرهم إليه؛ ولكن هذا يتنافى مع الغاية والهدف منه وخارجاً عن حكمة الله تعالى.

قال ابن عاشور" وقوله: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى**﴾ شرط امتناعي دل على أن الله لم يشأ ذلك، أي لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم عليه؛ فمفعول المشيئة محذوف لقصد البيان بعد الإبهام على الطريقة المسلوكة في فعل المشيئة إذا كان تعلقه بمفعوله غير غريب وكان شرطاً لإحدى أدوات الشرط كما هنا، وكقوله: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ**﴾ **[النساء، 133]**.

ومعنى ﴿**لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى**﴾ لهداهم أجمعين. فوقع تفنن في أسلوب التعبير فصار تركيباً خاصياً عدل به عن التركيب المشهور في نحو

قوله تعالى: ﴿**فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ **[الأنعام، 149]** للإشارة إلى تمييز الذين آمنوا من أهل مكة على من بقي فيها من المشركين، أي لو شاء لجمعهم مع المؤمنين على ما هدى إليه المؤمنين من قومهم.
والمعنى: لو شاء الله أن يخلقهم بعقول قابلة للحق لخلقهم بها فلقبلوا الهدى، ولكنه خلقهم على ما وصف في قوله:﴿**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً**﴾ **[الأنعام، 25]**، وقد قال تعالى:﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ **[هود، 118]**، وبذلك تعلم أن هذه مشيئة كلية تكوينية، فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا**﴾ **[الأنعام، 148]**. فهذا من المشيئة المتعلقة بالخلق والتكوين لا من المشيئة المتعلقة بالأمر والتشريع. وبينهما بون، سقط في مهواته من لم يقدر له صون"[(23)].

وفي كتب العقائد وردت هذه الآية الكريمة عند البيهقي- رحمه الله- في: "باب ذكر البيان أن الله تبارك وتعالى عادل في إضلال من شاء من عبيده، حكيم في إنشائه الكفر باطلاً فاسداً قبيحاً خلافاً للإيمان. قال الله ﷻ :﴿**وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾**[النحل، 93]**، وقال: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [**الأنبياء، ﴿23**. فأخبر بأنه يُضل من يشاء ويهدي من يشاء، ثم أشار إلى المعنى الذي يوجب أن يكون ذلك عدلاً منه فقال: ﴿**وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ يريد أنكم المسئولون عما تعملون، ثم بينه في آية أخرى فقال: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ فبين لذلك أنه لا يجري عليه حكم غيره ويجري حكمه على غيره، فغيره من المكلفين تحت حده، فمن جاوز حده كان ظالماً، وليس هم تحت حد غيره حتى يكون لمجاوزته ظالماً"[(24)].

فدلالة القول بأن الحوادث كلها خاضعة لإرادة ومشيئة الله تعالى، فلا مشيئة أمام مشيئته، ولا معارض لحكمه ﷻ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا اعتقاد أهل السنة، وبه قال الباقلاني وأضاف :" فإنه ﷻلو أراد شيئاً وأراد غيره شيئاً فوجد مراد غيره دون مراده كان ذلك دليل العجز والغلبة، والله يتعالى عن ذلك"[(25)].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ رداً على القدرية[(26)]. وهي من الفِرق التي ضلت في معتقد الهداية والضلال، حيث عدها العلماء من فرق المعتزلة؛ التي كفرت بالقدر وأنكرته فجاءت تسميتها من باب التسمية بالضد، قال الإيجي- رحمه الله-:" ويُلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم، وأنهم قالوا: إن من يقول بالقدر خيره وشره من

الله أولى باسم القدرية، ويرده قوله: "الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ"[27] وقوله : "هم خصماء الله في القدر" [28]" [29].

وقال ذلك ابن عساكر- رحمه الله- ؛ فإنها تعود في آرائها للمجوسية : " زعمت القدرية أن الله تعالى يخلق الخير، وأن الشيطان يخلق الشر، وزعموا أن الله عز وجل يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، خلافاً لما أجمع عليه المسلمون من أن ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون، ورداً لقول الله: **﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ﴾ [الإنسان، 30]** فأخبر أنا لا نشاء شيئاً إلا وقد شاء أن نشاءه ولقوله: **﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ﴾[البقرة، 253]** ولقوله: **﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾** [السجدة، 13] ولقوله تعالى: **﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج، 16]** ولقوله مخبراً عن شعيب إنه قال: **﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف، 89]** ولهذا سماهم رسول الله مجوس هذه الأمة لأنهم دانو بديانة المجوس وضاهوا أقوالهم وزعموا أن للخير والشر خالقين كما زعمت المجوس، وإنه يكون من الشر مالا يشاء كما قالت المجوس ذلك"[30].

فعلى هذا نجد اللحمة قوية بين قضية القدر والمشيئة الإلهية ومن الآثار في هذا الباب ما أورده البيهقي- رحمه الله- فقال: " عن ابن الديلمي، قال: وقع في نفسي شيء من القدر، قال: فأتيت أبياً فقلت: إنه قد وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي. فقال: « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، ولو مت على غير ذلك دخلت النار»[31]. قال: فأتيت حذيفة فحدثني بمثل هذا. قال:ثم أتيت عبد الله بن مسعود فحدثني بمثل هذا. قال: فأتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي بمثل هذا. ورواه أبو داود السجستاني[32] في كتاب السنن عن محمد بن كثير بنحو معناه"[33].

المبحـث الثاني

تفسير الآية السادسة والثلاثين من سورة الأنعام

قال تعالى في الآية السادسة والثلاثين من سورة الأنعام: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾.

المطلب الأول: التفسير التحليلي للآية الكريمة

جاءت هذه الآية الكريمة لبيان وتوضيح ما في الآية السابقة؛ فذكرت الفئة التي تستجيب للهداية والإيمان، والفئة الضالة التي وُصف أفرادها "بالموتى" لبعدهم عن الله ﷻ .

قال الماتريدي- رحمه الله- في تفسير هذه الآية الكريمة: " وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ**﴾ معناه والله أعلم: إنما يستجيب الذين ينتفعون بما يسمعون، وإلا كانوا يسمعون جميعاً، لكن الوجه فيه ما ذكرنا: أنه إنما يجيب الذين ينتفعون بما يسمعون، وهو كقوله تعالى:﴿**إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ**﴾ **[يس، 11]**. كان النبي ﷺ ينذر من اتبع الذكر ومن لم يتبع. لكن انتفع بالإنذار من اتبع الذكر، ولم ينتفع من لم يتبع، وهو ما ذكر ﷻ :﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾**[الذاريات، 55]**، أخبر أن ﴿**الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ لا تنفع غيرهم"[34].

وبمثل ذلك قال البيضاوي- رحمه الله- : "إنما يجيب الذين يسمعون بفهم وتأمل لقوله تعالى:﴿**أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ **[**ق، 37**]** وهؤلاء كالموتى الذين لا يسمعون، ﴿**والموتى يبعثهم الله**﴾ فيعلمهم حين لا ينفعهم الإيمان"[35]. وقال ابن الجوزي أن المقصود هو سماع القبول[36].

ومما يؤيد ذلك اللفتة اللغوية التي ذكرها الرازي- رحمه الله- في الفَرق بين يُجيب ويَستجيب فقال:"الفرق بين يستجيب ويجيب؛ أن يستجيب في قبوله لما دعي إليه وليس كذلك يجيب؛ لأنه قد يجيب بالمخالفة كقول القائل: أتوافق في هذا المذهب أم تخالف فيقول المجيب أخالف"[37].

فتكون الاستجابة من الحي الذي ينتفع بما جاءه من الحق، ومَن لا يجيب فهو الكافر شُبِّه بالميت الذي انقطع عمله فلا يفيده السماع ولا ينتفع بالحق، فتبين أن المرء لا يكسب من أي دعوة إلهية بعد أن هيأ الله تعالى له العقل والفطنة إلا بتوفيق منه وفضل، فيكون ممن فتح الله ﷻ عليه وشرح صدره للإيمان، ويكون التوفيق بعدها بالعمل وإجابة داعي الله على خلاف الطائفة الأخرى التي أغلقت قلوبها وأسماعها فلا يفقهون قولاً، ولا

---

34 الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، (2/113).

35 البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (2/406).

36 ينظر: ابن الجوزي، **زاد المسير**، (3/33).

37 الرازي، **مفاتيح الغيب**، (12/172).

يستجيبون لهداية، حتى وصفهم الله تعالى " بالموتى"؛ قال تعالى: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

ومما ورد في تفسير معنى (الموتى) ما ذكره الطبري- رحمه الله- : "﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ﴾ يقول: والكفارُ يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتًا، ولا يعقلون دعاءً، ولا يفقهون قولاً، إذ كانوا لا يتدبرون حُجج الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فيزجرون عما هم عليه من تكذيب رُسل الله وخلافهم"[38].

ومما ذكره جملة المفسرين في معنى" الموتى" أنه يراد بها أهل الكفر على سبيل التشبيه؛ منهم الطبري[39] وابن الجوزي[40] وابن عطية[41] والرازي، مع ذكرهم لآراء أخرى في هذه المسألة. فذكر الرازي قولين في تفسير هذه الجملة القرآنية هما: "

---

5 البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر، **السنن الصغرى**، (1/312)، كتاب فضائل القرآن، باب تخصيص السبع الطوال بالذكر، حديث رقم (980). وذكره كذلك في: **شعب الإيمان**، (2/465)، باب ذكر السبع الطوال، حديث رقم: (2415)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول. ولم أقف له على حكم.

6 البيهقي**، السنن الصغرى**، (1/312)، كتاب فضائل القرآن، باب تخصيص السبع الطوال بالذكر. حديث رقم (978)، رواه أحمد وفيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات. الهيثمي، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (6/416)، دار الفكر، بيروت، طبعة 1412هـ/الموافق 1992م.

7 البيهقي، **السنن الصغرى**، (1/313)، كتاب فضائل القرآن، باب تخصيص السبع الطوال بالذكر، حديث رقم (981). رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي، وبقية رجاله ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (6/383).

10 أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، (3/ 128)، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ينظر: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (المتوفى 516 هـ)**، معالم التنزيل**، (3/140)، حققه وخرَّج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1417هـ/1997م.

الأول: أنه مَثَل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة، والمراد: أنه تعالى هو القادر على أن يبعث الموتى من القبور يوم القيامة، ثم إليه يرجعون للجزاء، فكذلك ههنا أنه تعالى هو القادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان وأنت لا تقدر عليه.

والقول الثاني: أن المعنى وهؤلاء الموتى يعني الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون فحينئذ يسمعون وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم وقُرئ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ بفتح الياء"[42]. فالرأي الثاني عنده أن الموتى لا يسمعون.

وذكر ابن الجوزي- رحمه الله- في الموتى قولين: الأول أنهم الكفار، والثاني أنهم الموتى في الحقيقة[43]، أما أبو حيان فقد رجح القول بأنهم

---

11 ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (700-774 هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، (3/252)، تحقيق:سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1420هـ/1999م.

12 ينظر: الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد السمرقندي الحنفي، (ت 333هـ)، **تأويلات أهل السنة**، (2/112) ، تحقيق: فاطمة يوسف الخيمي، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م.

13 الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،** (2/20)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

15 الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، (2/ 113).

16 الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير(224-310 هـ)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، (11/340)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420هـ/2000م.

17 ابن الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، (3/33).

18 الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الشافعي، **مفاتيح الغيب**، (12/172)، دار الكتب العلمية، بيروت، (1421هـ/2000م)، الطبعة الأولى.

19 ينظر: الزَّبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (40/282)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية. ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، **لسان العرب**، (15/353)، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة،** (6/42)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، الطبعة: 1399هـ/1979م. إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، (2/978)، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

الموتى على الحقيقة لا التشبيه فقال: " ﴿**وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ**﴾ الظاهر أن هذه جملة مستقلة من مبتدأ وخبر، والظاهر أن الموت هنا والبعث حقيقة، وذلك إخبار من الله تعالى على أن الموتى على العموم من مستجيب وغير مستجيب، يبعثهم الله فيجازيهم على أعمالهم"(44). فلم يبحث في مسألة سماع الموتى باعتبار السماع خاص بفعل الاستجابة ومَن يستجيبون. أما الفعل المرتبط بالموتى على قوله فهو البعث بعد الموت. ويُفهم ضمناً من هذا الرأي أن مَن يسمع ويستجيب غير مَن مات ويُبعث، فلا بعث لمن يسمع لأنه حال الحياة، ولا سماع لمن مات لأنه لا يستجيب، فجعل العلة في

---

21 الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، (11/340).

22 أبو السعود، **ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، (3/ 129). ينظر: الالوسي، أبو الفضل محمود، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، (7/139)، دار إحياء التراث العربي، بيروت. السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم الفقيه الحنفي، **بحر العلوم**، (1/466)، دار الفكر، بيروت، تحقيق: د. محمود مطرجي.

23 ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (6/ 79-80). ينظر: البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (2/405)، دار الفكر، بيروت.

24 البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخُسرَوْجِرْدي (384 - 458هـ)، **القضاء والقدر**، (1/316)، تحقيق: محمد بن عبد الله آل عامر، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، (1421هـ/2000م).

25 الباقلاني، **الإنصاف**، (13).

26 ينظر: ابن حيدرة، أبو الحسن شيث بن إبراهيم، **حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر**، (56)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ ، تحقيق: عبد الله عمر البارودي.

27 البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، **السنن الكبرى**، (10/203)، حديث رقم (20658)، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، (1414هـ/1994م)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا. وذكره أبو داود في **سننه** كاملاً: « الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ إِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُمْ وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهُمْ ». أنظر: أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، **سنن أبي داود**،(4/357)، باب في القدر، حديث رقم (4693)، دار الكتاب العربي، بيروت، وزارة الأوقاف المصرية، قال الألباني:حسن.

السماع هي الاستجابة، أما الميت وقد انقطع عن الدنيا مكان العمل فلا حاجة له بالسماع.

قال ابن عطية في قوله تعالى: ﴿**وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ**﴾ " والموتى " يريد الكفار قاله مجاهد وقتادة والحسن و" يبعثهم الله " يحتمل معنيين؛ قال الحسن: معناه يبعثهم الله بأن يؤمنوا حين يوفقهم، وقال مجاهد وقتادة: " والموتى" يريد الكفار أي هم بمثابة الموتى حين لا يرون هدى ولا يسمعون فيعون، و"يبعثهم الله " أي يحشرهم يوم القيامة " ثم إليه " أي إلى سطوته وعقابه "يرجعون "، "والموتى" مبتدأ و " يبعثهم الله " خبره،

---

28 لم أقف على هذه الرواية بهذا اللفظ، ولكن جاءت بصيغة مقاربة عند الطبراني:" عن ابن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم خصماء الله، ألا وهم القدرية. لا يروى هذا الحديث عن عمر إلا بهذا الإسناد تفرد به بقية". الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، **المعجم الأوسط**، (6/317)، حديث رقم (6511)، دار الحرمين، القاهرة، (1415هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد, عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. وهُو حَدِيثٌ مُضطَرِبُ الإِسنادِ، يَروِيهِ بَقِيَّةُ بن الوَلِيدِ، عَن حَبِيبِ بنِ عُمَر الأَنصارِيِّ وهُو مَجهُولٌ، عَن أَبِيهِ، عَنِ ابنِ عُمَر، عَن عُمَر. وَقِيلَ أَيضًا: عَن أَبِيهِ، عَن رَجُلٍ مِن الأَنصارِ، عَنِ ابنِ عُمَر، عَن عُمَر. وَرَواهُ المُحارِبِيُّ، عَن أَبِي سُلَيمان التَّيمِيِّ وهُو مَجهُولٌ. وَقال ضِرارُ بن صُرَدٍ: عَنِ المُحارِبِيِّ، عَن أَبِي سُلَيمان التَّيمِيِّ، ووَهِمَ. ثُمّ قالُوا: عَن عُمَر بنِ حَبِيبٍ الأَنصارِيِّ، عَن أَبِيهِ، عَنِ ابنِ عُمَر، عَن عُمَر. وَقَولُ مَن قال: حَبِيبُ بن عُمَر أَصَحُّ، وهُو مَجهُولٌ. والحَدِيثُ غَيرُ ثابِتٍ، والله أَعلَمُ. ينظر: الدارقطني، أبو الحسن علي بن عُمَر ابن أحمد بن مهدي (306-385هـ)، **العلل الواردة في الأحاديث النبوية**، (2/71)، دار طيبة، الرياض، الطبعة الاولى، 1405هـ/ 1985م، تحقيق وتخريج د. محفوظ الرحمن زين الله.

29 الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، **المواقف**، (3/652)، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، تحقيق:د.عبد الرحمن عميرة.

30 ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي، **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري**، (156)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1404هـ.

31 ابن حبان، محمد بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، باب الورع والتوكل، حديث رقم (727)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (1414هـ/1993م)، تحقيق:شعيب الأرنؤوط، قال شعيب الأرناؤوط: **إسناده قوي**. ينظر:

فكأن معنى الآية إنما يستجيب الذين يسمعون فيعون والكفار سيبعثهم الله ويردهم إلى عقابه"[(45)].

والنتيجة التي يبتغيها المفسرون هي القول بأن المؤمنين والكفار كلاهما سوف يبعث للحساب، ولا يستفيد من الهداية إلا من استجاب وعمل صالحاً، وفي ذلك تسلية وتخفيف على النبي بألا يُهلك نفسه فيما هو بيد الله تعالى فإنما عليه البلاغ.

وأتبع بقوله تعالى: **ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** أي إن من رحمة الله تعالى وعدله أننا إليه راجعون المؤمن والكافر، ليحاسب من أساء، ويجزي المحسن؛ بعلمه وعدله ورحمته، فلا يظلم الله أحدًا منهم مثقال ذرة، قال تعالى: **قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا**

البيهقي، **السنن الكبرى**، باب ما ترد به شهادة أهل الأهواء، حديث رقم (20663). ابن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني، **المسند**،(5/189)،حديث رقم (21696)، مؤسسة قرطبة، القاهرة، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها، قال: حديث قوي.

32 أبو داود، **سنن أبي داود**، (4/361)، باب في القدر. وقال الألباني: صحيح.

33 البيهقي، **القضاء والقدر**، (1/161)، حديث رقم (148).

38 الطبري، **جامع البيان**، (11/341).

39 ينظر: الطبري، **جامع البيان**، (11/341).

40 ينظر: ابن الجوزي، **زاد المسير**، (3/33).

41 ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي**، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، (2/340)، دار الكتب العلمية، لبنان، 1413هـ/1993م، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.

42 الرازي، **مفاتيح الغيب**، (12/172).

43 ينظر: ابن الجوزي، **زاد المسير**، (3/34).

44 أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، **تفسير البحر المحيط**، (4/123)، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1422هـ/2001م، الطبعة الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض.

45 ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**،(339/2-340)، دار الكتب العلمية، لبنان، 1413هـ/1993م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران، 29].

المطلب الثاني: سمــاع المــوتى

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾.

ذكرت كتب العقائد هذه الآية الكريمة في تكليم الموتى، وهل يسمعون مَن يكلمهم، وكيفية السماع وغيره، فبعض العلماء قال بجواز سماع الموتى. ذكر ابن تيمية في مجموع الفتاوى حيث سُئل: هل يسمع الموتى؟ فأجاب: " الحمد لله رب العالمين، نعم يسمع الميت في الجملة كما ثبت في الصحيحين عن النبيﷺ أنه قال: "يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه"[46]. وثبت عن النبي ﷺ: "أنه ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقال: يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. فسمع عمرﷺ ذلك فقال: يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا!. فقال:والذي نفسي بيده ما أنت بأسمع لما أقول منهم؛ ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر"[47]. وكذلك في الصحيحين عن عبد الله بن عمرﷺ، (أن النبي ﷺ وقف على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ وقال: إنهم يسمعون الآن ما أقول)[48]. وقد ثبت عنه في الصحيحين من غير وجه أنه كان يأمر بالسلام على أهل القبور. ويقول:(قولوا السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم)[49] فهذا خطاب لهم وإنما يخاطب من يسمع"[50].

فأثبت ابن تيمية - رحمه الله- سماع الموتى للأحياء؛ بدليل سماعهم خفق النعال عند مغادرة الأهل والأحبة لهم، وسماعهم بعد أيام كما في رواية قتلى بدر. ودليل مَن احتج بهذه الآية الكريمة لإثبات سماع الموتى هو جعل "الموتى" من الفئة الداخلة في معنى يسمعون بالعطف، قال ابن سيده في أحد رأييه: "الموتى معطوف على الذين يسمعون، ويبعثهم الله جملة حالية"[51]. فعملت الواو بمعنى مع؛ فيدخلون في السماع والاستجابة مع المراد من قوله تعالى "الذين"[52].

والرأي الآخر خلاف ذلك؛ فالميت عندهم لا يسمع بأدلة من القرآن الكريم، فكان منها ما ورد رداً على القبورية[53] -التي عظمت شأن القبور والموتى- في إثباتهم سماع الموتى فقالوا: "لقد تصدى علماء الحنفية لإبطال عقيدة القبورية في سماع الموتى وأبطلوها بعدة وجوه، أذكر منها:

الوجه الأول: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾. قالوا في صدد تقرير

استدلالهم بهذه الآية: إن الله تعالى قد شبَّه الكفار بالموتى الذين لا يسمعون. فدل على أن الموتى لا يسمعون.

الوجه الثاني: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**﴾**[النمل، 80]**. وتقرير استدلالهم بهذه الآية: أن الله تعالى شبَّه الكفار بالموتى الذين لا يسمعون، وبالصم الذين لا يسمعون إذا قابلهم الداعي المنادي، فكيف إذا كان الصم مدبرين بعيدين، فحينئذ لا يسمع الصم نداء الداعي بالطريقة الأولى"[54].

فأستدل أصحاب هذا الرأي بالآية الكريمة: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ في نفي سماع الموتى، وأنها وصفٌ للكفار، وتشبيه لهم بالموتى؛ لأنهم لا يسمعون بداية فلا تكون منهم إجابة، والمقصود هو الدعوة والاستجابة للدين والإيمان الذي مقره الروح فمن لم يدخل الإيمان قلبه بات كالميت بل أضل سبيلاً ، ومما جاء في ذلك " عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ"[55]. فليس القصد مجرد السماع الحسي بل لا بُد بعده من الاستجابة لنداء الله عز وجل بالعمل والإيمان، وهذا أبعد ما يكون عنه الميت فلا يملك السماع ابتداءً حتى تُرجى منه استجابة، ولا حاجة له بالسمع وآلته ما دام انقطع العمل. أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**﴾ وقوله في سورة الروم: ﴿**فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**﴾ **[الروم، 52]** فقد جاءت في سياق وصف الكفار فنفت عنهم السماع وضربت لذلك المثل بالموتى والصم." قوله تعالى ذكره: (فَإِنَّكَ) يا محمد، (لا تُسْمِعُ المَوتَى) يقول: لا تجعل لهم أسماعا يفهمون بها عنك ما تقول لهم، وإنما هذا مثل معناه:فإنك لا تقدر أن تفهم هؤلاء المشركين، الذين قد ختم الله على أسماعهم، فسلبهم فهم ما يُتلى عليهم من مواعظ تنزيله، كما لا تقدر أن تفهم الموتى الذين قد سلبهم الله أسماعهم، بأن تجعل لهم أسماعاً. وقوله: (وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ) يقول: وكما لا تقدر أن تُسمع الصمّ الذين قد سلبوا السمع الدعاء إذا هم ولوا عنك مدبرين، كذلك لا تقدر أن تُوفق هؤلاء الذين قد سلبهم الله فهم آيات كتابه، لسماع ذلك وفهمه"[56].

فالإشارة واضحة الدلالة في أن الميت لا يسمع الخطاب فلا يُرجى منهم استجابة ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ **[فاطر، 22]**، فشبَّه الكفار بهم لتساويهم في عدم الانتفاع بالسماع، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾**[الأعراف، 179]** فبينت الآية أن الهدف من السماع هو الاستجابة للحق عند سماعه؛ وإلا فلا حاجة له بها.

أما ما ورد من أحاديث عن سماع الموتى كما في قصة القليب " عَنْ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ فَقُذِفُوا فِي طَوِيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ، وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالْعَرْصَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَلَمَّا كَانَ بِبَدْرٍ الْيَوْمَ الثَّالِثَ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا ثُمَّ مَشَى وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ. وَقَالُوا: مَا نُرَى يَنْطَلِقُ إِلَّا لِبَعْضِ حَاجَتِهِ. حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ: أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَرْوَاحَ لَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ." قال قتادة أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندماً"[57].

فقد جاءت هذه الرواية في الصحيحين بصيغ عدة تحمل نفس المعنى في خطاب النبي ﷺ لأهل القليب من صناديد قريش، بما يفهم منه العاقل معاتبته ﷺ لهم على تعنتهم وكفرهم رغم يقينهم بما جاءهم به من الحق، فليس المراد بالمخاطبة هنا الجدال، فقد انقطع منهم الأمل، وغابت الروح، وتوارى الجسد تحت التراب، فلا يرجى منهم عمل ولا جواب. بل الهدف هو تقرير عقيدة العقاب والجزاء، والإيمان باليوم الآخر وعذاب القبر، وبيان صدقه في سائر ما دعاهم إليه الحبيب المصطفى ﷺ، فهي معجزة اختص بها الله تعالى نبيه محمد ﷺ، كسائر المعجزات التي تحمل الدلالة على صدق نبوته، فأعاد لهؤلاء الموتى حاسة السماع من النبي ﷺ بقصد التوبيخ والتقريع لهم، وبيان فضل الله تعالى على النبي ﷺ والمؤمنين الذين صدقوا وآمنوا بالرسالة، لا أن الموتى يسمعون ما يقال لهم.

وفي مقولة عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئاً، هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله،؛ فان هذا من معجزاته صلى الله عليه و سلم الظاهرة [58].

ومما يؤيد القول بأنها معجزة خاصة بنبينا محمد ﷺ، تحمل التوبيخ والزجر والتقريع لأهل الكفر ما رواه البخاري: " عن عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَجَمْعُ قُرَيْشٍ فِي مَجَالِسِهِمْ إِذْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمُرَائِي أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى جَزُورِ آلِ فُلَانٍ فَيَعْمِدُ إِلَى فَرْثِهَا وَدَمِهَا وَسَلَاهَا فَيَجِيءُ بِهِ؛ ثُمَّ يُمْهِلُهُ حَتَّى إِذَا سَجَدَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ. فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَثَبَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا؛ فَضَحِكُوا حَتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنْ الضَّحِكِ. فَانْطَلَقَ مُنْطَلِقٌ إِلَى فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَام وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَثَبَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا حَتَّى أَلْقَتْهُ عَنْهُ وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَسُبُّهُمْ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ قَالَ: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، ثُمَّ سَمَّى: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ

رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَة، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ. ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ؛ قَلِيبِ بَدْرٍ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَأُتْبِعَ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ لَعْنَةً"[59]. فكان جزاء إساءتهم للنبي ﷺ قتلهم جميعاً يوم بدر، فكأن الخطاب النبوي لتلك الفئة التي ضلت فوق الأرض فدعا عليهم نبي هذه الأمة بمثابة الإجابة عن حالهم عند توعد نبينا ﷺ لهم بالعذاب، فبعد أن جيفوا وانقطع منهم السؤال والجواب جاء هذا الخطاب ليدلنا على حالهم بعد أن رأوا من آيات الله تعالى، وتحققوا وأيقنوا بصدق نبوة محمد ﷺ.

ومن أوجه الرد على هذا من قال بسماع الموتى ما رواه البخاري " عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَلِيبِ بَدْرٍ فَقَالَ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا.ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُمْ الْآنَ يَسْمَعُونَ مَا أَقُولُ. فَذُكِرَ لِعَائِشَةَ فَقَالَتْ: إِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ هُوَ الْحَقُّ ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**﴾ حَتَّى قَرَأَتْ الْآيَةَ"[60].

فبينت الرواية رأي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها – وهي الفقيهة العالمة- في سماع الموتى لمَّا سمعت رواية القليب، ففسرته بالعلم بعد أن صاروا إلى الله عز وجل وتيقنوا الحق، فليس المراد السماع الأُذني المحسوس، واستدلت لذلك بقوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**﴾، وقد جاء في شرح هذا الحديث :" أن عائشة كانت تنكر ذلك مطلقاً لقولها إن الحديث إنما هو بلفظ: "إنهم ليعلمون" وأن ابن عمر وهم في قوله: "ليسمعون". قال البيهقي: العلم لا يمنع من السماع، والجواب عن الآية أنه لا يُسمعهم وهم موتى ولكن الله أحياهم حتى سمعوا كما قال قتادة، ولم ينفرد عمر ولا ابنه بحكاية ذلك بل وافقهما أبو طلحة كما تقدم، وللطبراني من حديث ابن مسعود مثله بإسناد صحيح. ومن حديث عبد الله بن سيدان نحوه وفيه: " قالوا يا رسول الله وهل يسمعون؟ قال: يسمعون كما تسمعون، ولكن لا يجيبون" وفي حديث ابن مسعود "ولكنهم اليوم لا يجيبون" ومن الغريب أن في المغازي لابن إسحاق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد عن عائشة مثل حديث أبي طلحة وفيه: "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم" وأخرجه أحمد بإسناد حسن، فإن كان محفوظاً فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة لكونها لم تشهد القصة، قال الإسماعيلي: كان عند عائشة من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم ما لا مزيد عليه، لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله يدل على نسخه أو تخصيصه أو استحالته، فكيف والجمع بين الذي أنكرته وأثبته غيرها ممكن، لأن قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**﴾ لا ينافي قوله ﷺ: "إنهم الآن يسمعون" لأن الإسماع هو إبلاغ الصوت من المسمع في أذن السامع، فالله تعالى هو الذي أسمعهم بأن أبلغهم صوت نبيه ﷺ بذلك. وأما جوابها بأنه إنما قال إنهم ليعلمون فإن كانت سمعت ذلك

فلا ينافي رواية يسمعون بل يؤيدها. وقال السهيلي ما محصله: إن في نفس الخبر ما يدل على خرق العادة بذلك للنبي ، لقول الصحابة له: "أتخاطب أقواماً قد جيفوا؟ فأجابهم" قال: وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحالة عالمين جاز أن يكونوا سامعين، وذلك إما بآذان رءوسهم على قول الأكثر أو بآذان قلوبهم، قال: وقد تمسك بهذا الحديث من يقول: إن السؤال يتوجه على الروح والبدن، ورده من قال: إنما يتوجه على الروح فقط بأن الإسماع يحتمل أن يكون لأذن الرأس ولأذن القلب فلم يبق فيه حجة. قلت: إذا كان الذي وقع حينئذ من خوارق العادة للنبي حينئذ لم يحسن التمسك به في مسألة السؤال أصلاً"[61].

فما جاء به ابن حجر في فتح الباري من كون عائشة رضي الله عنها قد أنكرت ابتداءً سماع الموتى وردته بآية من كتاب الله تعالى، ثم رجعت عن هذا القول إنما لفهمها وعلمها وإدراكها لعلة السمع حال الحياة، فما فائدته لمن غُيب تحت الثرى وانقطع عمله، فأنكرت القول وصححت اللفظ من يسمعون إلى يعلمون، إما لرواية سمعتها أو اعتقادها بتوهم ابن عمر؛ ذلك يقود إلى أنها لم تسمع بأن النبي خاطب أهل القبور في غير ذلك الموقف؛ وهي زوجه وكانت أول من سيعلم بهذا النبأ الذي فيه غرابة مما يجعله سهل الحفظ لا يغيب عن البال، فيحمل خطاب نبينا محمد لأهل القليب وقد ثبت في الصحاح بما لا يحمل الشك؛ بإنه من خوارق العادات ومعجزة تضاف للنبي عليه الصلاة والسلام. وليست عائشة رضي الله عنها وحدها من استغربت هذا الخطاب، ففي الأحاديث إشارة إلى تعجب عمر بن الخطاب رضي الله عنه من حديث النبي مع أهل القليب؛ وذلك عند سؤاله النبي " يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا!. فقال: والذي نفسي بيده ما أنت بأسمع لما أقول منهم؛ ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا"[62]. فيدل هذا التعجب على عدم أنه وقع للمرة الأولى، ولا أحاديث أو آثار تفيد أن النبي قد خاطب غيرهم من أهل القبور.

والراجح في هذه المسألة أنه لا سماع للموتى فقد انقطع عملهم وانتهت رحلتهم في هذه الحياة الدنيا، وبدأت عندهم حياة أخروية غيبية، فلما كان السمع من صفات الأحياء لسماع الرسالة، وإقامة شؤون الحياة، والتنعم بها في الدنيا، فلا اعتبار ولا حاجة لها بعد الموت. ويمكن توجيه حديث القليب كما ذكر العلماء والرواة ومنهم قتادة، والبيهقي، والسهيلي، بأنها حالة خاصة للنبي من خوارق الأمور مما يجريه الله تعالى على يدي رسله الكرام، حيث خاطب النبي رؤوس الكفر وسادة الشرك الذين آذوه والمؤمنين، بعد أن بيَّن لهم عاقبة الأمور، وأن وراء هذه الحياة جنة أو نار. ويمكن القول أن هذا هو رأي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في سماع الموتى؛ فعندما سمعت الحديث للمرة الأولى صوبته بلفظ العلم "إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ" بما علمته من رواية النبي حيث يستحيل أنها قالت ذلك تفسيراً منها لمعنى السماع وهي بتلك المنزلة في العلم، حيث يشهد لها القاصي

والداني، أما الرواية المتأخرة عنها في إثبات السماع بما يقارب رواية عمر وابنه رضي الله عنهما فتأتي من باب علمها بما يقع للنبي من خوارق العادات كما سائر الأنبياء عليهم السلام، ويدل على ذلك استغراب الصحابة لحديث النبي مع قتلى المشركين وقد جيفوا، كما لم يرد في غير هذا الموضع كلام نبينا محمد للأموات. ومن استدل لهذا الرأي بالسلام على أهل القبور فهو من باب الدعاء لهم لا مخاطبتهم بما يفيد سماعهم.

وقد ظهرت بعض الفرق التي اتخذت من القبور قبلة يدعون عند أهلها، ويطلبون من أصحابها من الأولياء، والعلماء، والصالحين، الاستجابة لهم وقضاء حوائجهم، ذلك باعتبار أن الموتى يسمعون فيستجيبون لهم، حتى تفننوا في تعظيم موتاهم ومقابرهم، وادخلوا لملة التوحيد الشرك، ومن هذه العقائد ما كان قبل الإسلام، ومنها ما جاء بعد الإسلام، والقبورية إحدى هذه الفرق.

ومما ذكر في نشأتها وعقيدتها:" لما رأى أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين: من عبدة القبور والأوثان والأصنام أنه لا يمكن القضاء على هذا الإسلام، اندس كثير من جواسيس اليهود والنصارى والمشركين بين المسلمين، متبرقعين بالإسلام لإحداث الفتن، وبث الوثنية تحت خطط مدبرة سرية، يهودية نصرانية ومجوسية وثنية، لإعادة الجاهلية الأولى، عن طريق الغلو في الصالحين وتعظيم قبورهم بما لم يأذن به الله عز وجل، فابتليت هذه الأمة بملحد منافق يهودي هو عبد الله بن سبأ؛ فادعى ألوهية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأحدث عقيدة رجعته بعد موته، ورجعة النبي أيضًا، وحياة الأموات الأولياء حياة دنيوية، وكانت له جمعية سرية تعرف بالسبئية، إلى أن تطورت وعرفت بالروافض، ثم الإسماعيلية القرمطية، والنصيرية، وغيرهم من الباطنية. فكانوا يعبدون القبور وأهلها ويبنون عليها المساجد والقباب، فأحيوا بذلك سنن اليهود والنصارى والمشركين. فظهرت في هذه الأمة فرقة قبورية وثنية في صورة هؤلاء الروافض؛ فعمروا المشاهد وعطلوا المساجد"[(63)].

المطلب الثالث: إثبات البعـث

جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ القول بالبعث بعد الموت، وأن هنالك حياة أخرى يحياها الإنسان بعد حياته الدنيا، وذلك بعد النفخة الثانية في الصور يوم القيامة. قال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ**﴾ **[يس، 51]**. فما المقصود بالبعث، وما دليله؟

البعث لغةً: من بَعَثَهُ يَبْعَثُه بَعْثاً أَرْسَلَهُ وَحْدَه، وبَعَثَ به: أَرسله مع غيره، وابْتَعَثَه أَيضاً أَي أَرسله، فانْبعَثَ، والبَعْثُ يكون بَعْثاً للقوم يُبْعَثُون إِلى وَجْهٍ من الوجوه مثل السَّفْر والرَّكْب، وبَعَثَه من نَوْمه بَعَثاً فانْبَعَثَ أَيْقَظَه وأَهَبَّه، والبَعْثُ في كلام العرب على وجهين؛ أَحدهما: الإِرْسال كقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى**﴾ **[الأعراف، 103]** معناه أَرسلنا. والبَعْثُ: إِثارةُ باركٍ أَو قاعدٍ تقول بَعَثْتُ البعير فانبَعَثَ أَي أَثَرْتُه فَثار[64].

وفي الإصطلاح: " هو إحياء الله للموتى وإخراجهم من قبورهم، وحقيقة البعث: أن الله تعالى يجمع أجساد المقبورين التي تحللت وبعيدها بقدرته كما كانت، ثم يعيد الأرواح إليها، ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء"[65]. وهو: "إحياء الأموات بعد القيامة، والإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة"[66]. قال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ **[يس، 78-79]**. ومن أدلته: ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾**[البقرة، 56]**، وقوله عز وجل: ﴿**مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ **[لقمان، 28]**، وقوله تعالى:﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ **[التغابن، 7]**.

---

64 ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، **لسان العرب**، (2/116)، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، بتصرف.

65 آل الشيخ، صالح بن عبد العزيز ونخبة من العلماء، **كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة**، (307-308)، الطبعة: الأولى، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 1421هـ. ينظر: الخميس، محمد بن عبد الرحمن، **أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة**، (505)، دار الصميعي، المملكة العربية السعودية.

66 اللهيميد، سليمان بن محمد، **تيسير الاعتقاد شرح لمعة الاعتقاد**،(1/66)، السعودية، رفحاء.

والباعث: هو الذي يحيي الخلق يوم النشور، ويبعث من في القبور، ويحصل ما في الصدور[67]، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج، 5]**.

---

46 ذكره البخاري عن أنس بصيغة أخرى هي:عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ. ينظر: البخاري، **الجامع الصحيح**،(3/308)، باب الميت يسمع خفق النعال، حديث رقم (1338)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. وعند مسلم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِى قَبْرِهِ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا انْصَرَفُوا»؛ مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري**، الجامع الصحيح**، (8/162)، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، حديث رقم (7396)، دار الجيل ودار الأفاق الجديدة، بيروت.

47 مسلم، **الجامع الصحيح**، (8/163)، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، حديث رقم (7403).

48 البخاري**،** أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، (10/4)، كتاب الجمعة، باب الطيب للجمعة، حديث رقم (3980)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ. وبلفظ مقارب عند مسلم: "فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ فَقَالَ: « يَا فُلاَنَ بْنَ فُلاَنٍ، وَيَا فُلاَنَ بْنَ فُلاَنٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا، فَإِنِّى قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِىَ اللَّهُ حَقًّا». قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لاَ أَرْوَاحَ فِيهَا. قَالَ:« مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَىَّ شَيْئًا». مسلم، **الجامع الصحيح**، (8/164)، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار، حديث رقم (7402).

كما ورد في الصحيحين ذكر الإيمان بالبعث، روى البخاري- رحمه الله-: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الْإِيمَانُ. قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ. قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ. قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ. قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ. قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ. قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ؛ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا؛

---

[49] مسلم، **الجامع الصحيح**، (3/64)، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهله، حديث رقم (2301). ولم أقف على رواية في ذلك عند البخاري.

[50] ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، **مجموع الفتاوى**، (24/363)، تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، 1426هـ/2005م.

[51] ابن سيده، **إعراب القرآن**، (4/12).

[52] ينظر: الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، **كتاب حروف المعاني**، (1/37)، مؤ سسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1984م، تحقيق: د.علي توفيق الحمد. السفاقسي، **التحفة الوفية بمعاني الحروف العربية**، ص(27).

[53] القبورية: تطلق على الفئة التي تُعظم القبور وأهلها، بدأت قبل زمن نوح عليه السلام وتطورت عبر الزمن حتى أصبحت قبورية وثنية. للزيادة يُنظر: الأفغاني، أبو عبد الله شمس الدين بن محمد بن أشرف بن قيصر(المتوفى 1420هـ)، **جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية**، (1/18-27)، دار الصميعي، الطبعة الأولى، (1416هـ/1996م).

[54] الأفغاني، **جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية**، (2/847).

[55] ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، (1/223)، مسند عبدالله بن العباس، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط؛ وقال: إسناده ضعيف، مؤسسة قرطبة، القاهرة. النيسابوري، أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله، **المستدرك على الصحيحين**،(1/714)، حديث رقم (2037)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،1411هـ/1990م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي، **الجامع الصحيح سنن الترمذي**،

إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ ﷺ: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان،34]** الْآيَةَ ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: رُدُّوهُ. فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا. فَقَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ. قَالَ أَبُو عبد الله: جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ الْإِيمَانِ"[68]. وروى البخاري: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ فَقَالَ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: تَقُولُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا فَمَا بَالُ فُلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي. فَقَالَ: لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ. فَذَكَرَهُ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا

(5/177)، باب فضائل القرآن، حديث رقم (2913)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها؛ وقال: حديث ضعيف.

56 الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، (20/117).

57 البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي، **الجامع المسند الصحيح،** (4/1461)، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، حديث رقم (3757)، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ/ 1987م، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.

58 مسلم، **الجامع الصحيح**، (4/ 2202)، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، حديث رقم (2873). والتعليق من محمد فؤاد عبد الباقي، بتصرف.

59 البخاري، **الجامع الصحيح**، (1/530)، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئاً من الأذى،حديث رقم (520).

60 البخاري، **الجامع الصحيح،** (4/1462)، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، حديث رقم (3760).

61 ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني (المتوفى 852هـ)، **فتح الباري**، (7/304)، دار الفكر، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وذكر أطرافها: محمد فؤاد عبد الباقي.

62 سبق تخريجه.

63 الأفغاني، **جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية**، (12-1/11)، بتصرف.

مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى"[69].

وبعد ذكر هذه الأدلة الصحيحة الصريحة في إثبات البعث لا يمكن لعاقل أن يشك فيه طالما أنه يؤمن بالكتاب والسنة. قال ابن قدامة- رحمه الله-: " والبعث بعد الموت حق وذلك حين ينفخ إسرافيل -عليه السلام- في الصور: ﴿**فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون**﴾ ويحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بهما فيقفون في موقف القيامة حتى يشفع فيهم نبينا محمدﷺ"[70].

المبحث الثالث

تفسير الآيـة التاسعة والثلاثين من سـورة الأنـعــام

قال تعالى في الآية التاسعة والثلاثين من سورة الأنعام: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

المطلب الأول: التفسير التحليلي للآية الكريمة

ذكر الله تعالى هذه الآية الكريمة لبيان جزاء المكذبين بالآيات التي أنزلها رب العالمين وبثها من حولنا لهداية البشرية، وإرشادهم إلى الدين الحق، قال تعالى في الآيتين السابقتين: ﴿**وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ **[الأنعام، 38]**.

جاءت الآية الأولى دليلاً على قدرته تعالى، وكمال حكمته في الإنزال أو عدمه؛ بما لا علم للإنسان به؛ لجهله، وغياب حكمته في كثير من الأمور، فنزول الآيات حجة على الإنسان، فإن جحدها نزل به جزاء الكفر والتكذيب. ثم جاء قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ**﴾ لبيان شمول علم الله تعالى بسائر مخلوقاته، ما يدب منها في الأرض فلا يبتعد ولا يهاجر، وما كان منها كثير الترحال والتنقل والهجرة كالطيور.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ**﴾ دليل على كمال قدرته عز وجل وحسن تدبيره، وحكمته وشمول علمه سبحانه وتعالى. فهو كالدليل على أنه تعالى قادر على الإنزال وإنما لا ينزل محافظة على الحكم الباهرة[71].

" وقوله: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ أي ما أغفلنا ولا ضيعنا في اللوح المحفوظ فقد أثبت الله تعالى فيه جميع الحوادث، وإن كان المراد به القرآن: فما تركنا فيه من شيء من أمر الدين إما تفصيلاً أو إجمالاً، ومثله قوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ **[**النحل، **89]** وقال:﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ **[النحل، 44]** و(**من**) في ﴿**مِن شَيْءٍ**﴾ مزيدة للاستغراق، وقوله: ﴿**ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ يعني الأمم المذكورة، وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم. وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء ومنهم أبو ذر وأبو هريرة والحسن وغيرهم. وذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها وبه قال الضحاك، والأول أرجح للآية ولما صح في السنة المطهرة من أنه " يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء"[72] ولقول الله تعالى:﴿**وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**﴾ **[التكوير، 5]**. وذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر المذكور في الآية حشر الكفار وما تخلل كلام معترض. قالوا: وأما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص[73].

فدلت الآية الكريمة على إحاطة علم الله بكل الموجودات وسائر المخلوقات، وتدوين أعمالهم في اللوح المحفوظ لحين البعث ليكون حجة عليهم أمام الخلق يوم الدين. ثم جاء قوله تعالى: **وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**. فيذكر الله تعالى هنا الفئة الضالة؛ الذين كذبوا بحجج الله وآياته وأدلته فكانوا **"صمٌّ"** عن سماع الحق، **"بكم"** عن القيل به، **"في الظلمات"** أي في ظلمة الكفر حائرًا فيها، يتخبط ويرتطم في متاهات الكفر، فلا يبصر آيات الله فيعتبر بها، ويعلم أن الذي خلقه وأنشأه فدبَّره وأحكم تدبيره، وقدَّره أحسن تقدير، وأعطاه القوة، وصحح له آلة جسمه، لم يخلقه عبثًا، ولم يتركه سدًى، ولم يعطه ما أعطاه من الآلات إلا لاستعمالها في طاعته وما يرضيه، دون معصيته وما يسخطه. فهو لحيرته في ظلمات الكفر، وتردّده في غمراتها، غافلٌ عمَّا الله قد أثبت له في أمّ الكتاب، وما هو به فاعلٌ يوم يحشر إليه مع سائر الأمم[74].

شبه الله حال الكافرين الجاحدين بالآيات بالصم فلا هم يسمعون، وبالبكم فلا ينطقون بالإيمان وبما هو بيِّن واضح جلي، وأضاف إلى كل ما تقدم من صمم وبكم إلى أنهم في ظلمات وسواد يغشى على القلوب قبل الحواس، فعطلوا عقولهم وفطرتهم التي فطروا عليها مكابرةً وعتواً، فتوعدهم الله تبارك وتعالى بالحساب يوم الدين؛ قال تعالى: **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ[النحل:111]**.

المطلب الثاني: بيـان حقيقـة الصمم والبكـم

في قوله تعالى: **وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** بيَّن الله حال المكذبين بآياته وقرآنه؛ بأنهم صُمٌ بُكمٌ لا يسمعون ولا ينطقون بالحق الذي خلقوا من أجل الإيمان به وإتباعه، ومع كل ذلك فهم أيضاً في ظلمات لا يرون النور، نور الهداية والتوفيق من رب العالمين.

قال ابن القيم: "وأما البكم فقال تعالى: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ[البقرة، 18]** والبكم: جمع أبكم، وهو الذي لا ينطق، والبكم نوعان: بكم القلب وبكم اللسان. كما أن النطق نطقان: نطق القلب ونطق اللسان، وأشدهما بكم القلب، كما أن عماه وصممه أشد من عمى العين وصمم الأذن، فوصفهم سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق ولا تنطق به ألسنتهم، والعلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: من سمعه وبصره وقلبه، وقد سدت عليهم هذه الأبواب الثلاثة، فسد السمع بالصمم، والبصر بالعمى، والقلب بالبكم، ونظيره قوله تعالى: **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ[الأعراف، 179]** وقد جمع سبحانه بين الثلاثة في قوله: **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ**

يَسْتَهْزِؤُون﴾[الأحقاف، 26]، فإذا أراد سبحانه هداية عبد فتح قلبه وسمعه وبصره، وإذا أراد ضلاله أصمه وأعماه وأبكمه"[75].

فبيَّن ابن القيم العلاقة بين الحواس والقلب والإيمان، كأنها علاقة الجسد بالروح، فلا يهدأ ولا يسكن الجسد إلا إن وافقت حركات الحواس مراد الله تعالى التي فطر الناس عليها، فيسكن القلب وتهدأ النفس وترق ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه، 124]**.

ومن خير ما قيل في ذلك ما ذكره الماتريدي فقال: " والسمع والبصر والحياة قد جعلها الله في الدنيا لمعاشهم ومعادهم، وكذلك جعل لهم اللسان لينطق بحوائجهم في الدنيا، ويعرف بعضهم من بعض المحاجة في الدنيا، ويدرك به الأزلي، فإذا لم ينتفعوا بذلك أزال عنهم ذلك، وسماهم العُميَ والصم والبُكم. ألا ترى أنه قال:﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**﴾ لمَّا لم ينتفعوا بذلك؟ ألا ترى أنه إذا لم يدرك الأزلي والأبدي مِنْ ذلك سماه أعمى حِين قال: ﴿**رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه، 125]**. والحياة حياتان: مكتسبة وهي: الحياة التي اكتسبت بالهدى والطاعات، وحياة منشأة: وهي حياة الأجساد. فالكافر له حياة جسد، وليس له حياة مكتسبة، وأما المؤمن فله حياتان جميعاً المكتسبة والمنشأة. فسمى كلاً بالأسماء التي اكتسبها. فالمؤمن اكتسب أفعالاً طيبةً، فسماه بذلك، والكافر اكتسب أفعالاً قبيحة، فسماه بذلك"[76].

فرجح الماتريدي القول بأن العمى والصمم إنما كان بِبُعد العباد عن الله تعالى، فلم يستفيدوا من لسانهم بقول الحق، ولا من آذانهم بسماع نداء الإيمان، لأن الله تعالى إنما رزقهم العقل والسمع والبصر لأجل أن يعرفوه بها، ثم يعبدونه ويتقربون إليه بهذه الجوارح؛ فمن لم يفعل كأنما عَشَّاها فصار بذلك أصماً أبكماً، لا أنه يحشر يوم القيامة أعمى أبكم على الحقيقة، فلا يرى ولا يسمع من حوله أحداث الآخرة، بل إن في مشاهدته لأحداثها وسماعه لأهوالها أكمل الزجر وأشد البيان وبالغ التصديق بما جاء به الأنبياء فكذبوهم.

وفي هـذا رد على المعتزلة التي قالت: بأن الله تعالى يحشر الكفار يوم القيامة صم بكم، " قال الجبائـي: معناه أنه تعالى يجعلهم صماً وبكماً يوم القيامة عند الحشر، ويكونون كذلك في الحقيقة بأن يجعلهم في الآخرة صماً وبكماً في الظلمات، ويضلهم بذلك عن الجنة وعن طريقها، ويصيرهم إلى النار. وأكد القاضي هذا القول بأنه تعالى بيَّن في سائر الآيات أنه يحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم"[77].

فرد عليهم الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله- فذكر الآيات التي اتكأ عليها المعتزلة في مقولتهم، وبيَّن مقصودها فقال:" وأما قوله تعالى: ﴿**وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا**﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿**فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق، 22]** فقالوا: فكيف يكون هذا من الكلام المحكم، فيقول إنه أعمى ويقول فبصرك اليوم

حديد فشكوا في القرآن. أما قوله: ﴿**وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ عن حجته ﴿ **قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى**﴾ عن حجتي وقد كنت بصيراً بها مخاصماً بها؛ فذلك قوله: ﴿ **فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ**﴾ **[القصص، 26]** يقول الحجج: ﴿**فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ**﴾. وأما قوله: ﴿ **فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ وذلك أن الكافر إذا خرج من قبره شخص بصره ولا يطرف بصره حتى يعاين جميع ما كان يكذب به من أمر البعث. قوله: ﴿**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ يقول: غطاء الآخرة، فبصرك يحد النظر لا يطرف حتى يعاين جميع ما كان يكذب به من أمر البعث فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة"[78].

فوضَّح ابن حنبل – رحمه الله- الرد على شبهة المعتزلة بالحجة والبرهان، لا بالهوى والطغيان، فبيَّن أن العمى والبكم يوم القيامة لا يكون على الحقيقة للكفار، بل على سبيل التشبيه، فالعمى وقتها غياب الحجة عن العقل فيعجز عن الجواب والنطق، والعمى والصمم في الحياة الدنيا يكون بالابتعاد عن الحق فلا يريد سماعه، فيغلق قلبه عن الذكر وعينه عن الإطلاع والتفكر في آلاء الله المبثوثة في جميع ما حولنا في الكون وفي أنفسنا ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ**﴾ **[الروم، 8]**.

الخاتمـة:

بعد التـأمل في هذه الدراسة خرج الباحث بالنتائج والتوصيات التالية:

أ – النتائــج :

1. بيان أن هداية الله تعالى تكون توفيقية، فالإنسان مخير في أمر الإيمان والكفر؛ وعلم الله تعالى السابق بحال الإنسان لا يؤثر على اختياره الإيمان أو الكفر، وإلا لكان الحساب والجزاء في الآخرة ظلماً، وكانت الحياة عبثاً - وحاشاه ذلك- .
2. إظهار وجوه خطأ القدرية والمرجئة والمعتزلة ومَن تبعهم في قضية الهداية والضلال.
3. بيان وجوه نعت النبي بقوله تعالى: **{فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ}**.
4. إثبات نفي سماع الموتى بالأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والعقل.
5. بيان نعت الله للكفار بقوله تعالى: **{صُمٌّ وَبُكْمٌ }** على سبيل التشبيه نتيجة ضلالهم وبعدهم عن الحق، لا على سبيل الحقيقة.

ب- التوصيـات:

1. الاستناد في دراسة العقائد على ما جاء في الكتاب وصحيح السنة.
2. دراسة موضوع سماع الموتى، والاهتمام بالروايات الواردة في الموضوع.

المصادر والمراجع:

(1) الأفغاني، أبو عبد الله شمس الدين بن محمد بن أشرف بن قيصر(المتوفى:1420هـ)، **جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية**، دار الصميعي، الطبعة: الأولى، (1416هـ/1996م).

(2) الألوسي، محمود أبو الفضل، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(3) الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، **المواقف**، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة.

(4) البخاري**،** أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ. دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ/1987م، تحقيق وتعليق: د. مصطفى ديب البغا.

(5) البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد أبو منصور، **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1977م.

(6) البغوي**،** أبو محمد الحسين بن مسعود (المتوفى 516هـ)، **معالم التنزيل**، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1417هـ/1997م.
(7) البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر**، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/ 1995م، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي.
(8) البيضاوى، ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل،** دار الفكر، بيروت.
(9) البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوْجِرْدي (384 - 458هـ)، **السنن الصغرى**.
(10) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، **السنن الكبرى**، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، (1414هـ/1994م)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.
(11) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، **شعب الإيمان**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.
(12) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، **القضاء والقدر**، تحقيق: محمد بن عبد الله آل عامر، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، (1421هـ/2000م).
(13) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، 1426هـ/ 2005م.
(14) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية،** دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ، تحقيق: خليل الميس.
(15) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، **زاد المسير في علم التفسير**، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة،(1404هـ).
(16) ابن حبان، محمد بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (1414هـ/1993م)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.
(17) ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد الشيباني، **الرد على الزنادقة والجهمية**، المطبعة السلفية، القاهرة، 1393هـ، تحقيق: محمد حسن راشد.
(18) ابن حنبل، أبو عبدالله أحمد الشيباني، **المسند**، مؤسسة قرطبة، القاهرة، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.

(19) ابو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، **تفسير البحر المحيط**، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1422هـ/2001م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض.
(20) ابن حيدرة، أبو الحسن شيث بن إبراهيم، **حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ ، تحقيق: عبد الله عمر البارودي.

---

67 الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، (123)، الجفان والجابي، قبرص، الطبعة الأولى، 1407هـ/1987م، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي.

68 البخاري، **الجامع الصحيح،** (1/54)، باب سؤال جبريل، حديث رقم (50)، . انظر: مسلم، **الجامع الصحيح**، (1/39)، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، حديث رقم (9).

69 البخاري، **الجامع الصحيح،** (8/512)، كتاب الأنبياء، باب قول الله وان يونس لمن المرسلين، حديث رقم (3414).

70 المقدسي، أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن قدامة، **لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد**،(ص 134)، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، 1406هـ، تحقيق : بدر بن عبد الله البدر.

71 ينظر: الألوسي، محمود أبو الفضل، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، (7 /142- 143)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بتصرف.

72 مسلم، **الجامع الصحيح**، (8/ 18)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (6745). دار الجيل.

73 الشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، (2/164)، بتصرف يسير.

74 الطبري، **جامع البيان**، (11/350)، بتصرف.

75 ابن القيم، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، **التفسير القيم**، (1/165).

76 الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، (2/ 114).

77 الرازي، **مفاتيح الغيب**، (12/ 181).

78 ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد الشيباني، **الرد على الزنادقة والجهمية**، (ص 18)، المطبعة السلفية، القاهرة،1393هـ، تحقيق:محمد حسن راشد.

(21) الخميس، محمد بن عبد الرحمن، **أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة**، دار الصميعي، المملكة العربية السعودية.
(22) الدارقطني، أبو الحسن علي بن عُمَر ابن أحمد بن مهدي(306 - 385هـ)، **العلل الواردة في الأحاديث النبوية**، دار طيبة، الرياض، الطبعة الاولى، 1405هـ/1985م، تحقيق وتخريج د. محفوظ الرحمن زين الله.
(23) الـداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد الأموي، **البيان في عد آي القرآن**، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، 1414هـ/1994م، الطبعة: الأولى، تحقيق: غانم قدوري الحمد.
(24) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، **سنن أبي داود**، دار الكتاب العربي ، بيروت، وزارة الأوقاف المصرية.
(25) الذهبي، شمس الدين أبو عبدلله محمد بن أحمد بن عثمان، **ميزان الاعتدال**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(26) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الشافعي، **مفاتيح الغيب**، دار الكتب العلمية، بيروت، (1421هـ/2000م)، الطبعة: الأولى.
(27) الزركشي، أبو عبدالله، محمد بن بهادر بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، دار المعرفة، بيروت، 1391هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
(28) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،** دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.
(29) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(30) السفاريني، محمد بن أحمد بن سالم النابلسي الحنبلي، **حاشية الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**، (1114هـ/1188هـ).
(31) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(المتوفى:911هـ)، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/1974م.
(32) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م.
(33) آل الشيخ، صالح بن عبد العزيز ونخبة من العلماء، **كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة**، الطبعة: الأولى، وزارة الشؤون

الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 1421هـ.

(34) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، **المعجم الأوسط**، دار الحرمين، القاهرة، (141هـ)، تحقيق:طارق بن عوض الله بن محمد ,عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.

(35) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير(224-310هـ)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م.

(36) ابن عادل الدمشقي، أبو حفص عمر بن علي، **اللباب في علوم الكتاب**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ/1998م، الطبعة الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض.

(37) ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي، **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1404هـ.

(38) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي**، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، دار الكتب العلمية، لبنان، 1413هـ/1993م، الطبعة الأولى، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد.

(39) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (المتوفى 276هـ)، **غريب القرآن**، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، 1398هـ/1978م.

(40) ابن القيم، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، **التفسير القيم**، دار ومكتبة الهلال، 1990م، بيروت.

(41) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، (700-774هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 1420هـ/1999م.

(42) اللهيميد، سليمان بن محمد، **تيسير الاعتقاد شرح لمعة الاعتقاد**، السعودية، رفحاء.

(43) الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد السمرقندي الحنفي، (ت 333هـ)، **تأويلات أهل السنة**، تحقيق: فاطمة يوسف الخيمي، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م.

(44) مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري**، الجامع الصحيح**، دار الجيل ودار الأفاق الجديدة، بيروت. دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(45) المقدسي، أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن قدامة، **لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد**، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، 1406هـ ، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر.

(46) منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

(47) النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي، **الناسخ والمنسوخ**، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، 1408هـ، تحقيق : د. محمد عبد السلام محمد.

الهـوامـش: